1 الإحسان

بسم الله الرحمن الرحيم

- **عنوان الكتاب : الإحسان 1**
- **المؤلف: عبد السلام ياسين**
- **الطبعة الأولى: 1998**
- **السحب: مطبوعات الأفق – الدار البيضاء**
- **رقم الإيداع القانوني: 98/163**

عبد السلام ياسين

الإحسان

1

الجزء الأول

- مقدمة
- الرجال
- عقبة واقتحام
- الصحبة والجماعة
- الذكر
- الصدق
- البذل

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مُضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾. ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**﴾. ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً**﴾.

اللهم اجعلنا من الفائزين الفوز العظيم فضلا منك ومنة يا ملك يا وهاب.

أما بعد فقد كتبت كتاب «الإحسان» منذ سبع سنوات، ونشرت، خلسة من الرقابة الصارمة على المطابع أن تتعامل معنا، الفصل الأول منه تحت عنوان «الرجال».

كان بعض الفضلاء ممن يتأسفون على «سوابقي» الصوفية اقترح علي أن أكتب متبرئا من ماضيّ الصوفي. ولعلهم بحسن نية أرادوا أن يمحوا عني وصمة. ولعلهم ظنوها زلة. ولعلهم.

فهأنا أكتب بعد تسع وعشرين سنة مضت منذ وضعت قدمي في الحوزة المباركة يوم احتضنني وليدا تائبا حائرا وأنا في الأربعين من عمري شيخي وقدوتي

إلى الله العارف بالله الشريف النسيب سيدي الحاج العباس بن المختار القادري نسبا البوتشيشي شهرة الشاذلي طريقة.

رحمه الله وأجزل له المثوبة بما غذى الوليد بذلك الغذاء الروحي الذي لا يخطر وجوده ببال من يسألني عن مؤلفات شيخي سؤال تبكيت، لأن الرجل العظيم رحمه الله ما كان معه من مؤهلات القُرّاء المهرة الحاذقين إلا زاد متواضع من حفظ القرآن والتفقه في الدين. عالم الروح وعجائب القلب واختصاص الله عز وجل من شاء من عباده بما شاء من مادة ترياق القلوب أمور ما عندَ المبكتين بها خبر. كان الله لنا ولهم.

وُلدت الميلاد المعتمد في طريق الله على يد محسن من المحسنين، في ظل قلب تزكى لما زكاه الله. شيخ صوفي قال الاصطلاح. ما هو التصوف وما بينه من علاقة وبين الالفاظ القرآنية النبوية مثل: إحسان، تزكية، أولياء، تقرب إلى الله، سابقون، مقربون، محِبون، محبوبون ؟ وهل بعد العلم يَرويه العلماء عن العلماء بما قال الله وقال رسول الله من مطلب؟

حاولت في الفصل المنشور منذ سنوات بعنوان «الرجال» أن أضع بين يدي العقلاء نماذج من علماء المسلمين وأفذاذهم الذين بحثوا عن عارف بالله يربيهم. وانهالت علي من بعض الناس حملات تؤكد جَهد أيمانها أن مؤلف كتاب «الإسلام بين الدعوة والدولة» لا يزال سادرا في غيه، مصرا على ضلاله، ناشرا لبدعته. وكفِّرْ الناس يا من لا يتورع ولا يحب أن ينزل لحظة عن رئاسته ليتعلم. سبحان الله! واحد أمضى بحول الله وتوفيقه تسعا وعشرين سنة في رحاب عمل الليل والنهار، وجُهد العقل والجسد والقلب ضال مضل. وواحد قرأ ورقات شتم ولعن وسب وتكفير في الصوفية كلامه حجة! سبحان الله!

أما بعد فهل ينفع أن نُثير المعارك حول التصوف، أم يجمُل أن نسكت؟ بل

السؤال هو: أفينا من يصبر حتى يتعلم أم إن الأمر «أشار فأشار» ونمضي لشأننا على سطوح التسلف المجند يداً واحدة علينا مع «من غلبهم بالسيف حتى سمي أمير المؤمنين»، لا يحل عقيدة متوارثة أنْ نبيت ولا نراه لنا إماما مطاعا. أو نمضي لشأننا ببراح إسلام فكري ثقافي سياسي وما شئت، لكن دعنا، نرجوك، من الصوفية.

منذ عشرين سنة حمل أحد الإخوان كتابَيّ «الإسلام بين الدعوة والدولة» و«الإسلام غدا» إلى الموسم بمكة المكرمة. في مكة أهدى أخي سيدي أحمد الملاخ نسختين للسيد الجليل أبي الحسن الندوي. فلما انصرف الناس إلى المدينة المنورة إذا بالشيخ الندوي يبحث عن المغربي ليُحمله إلي رسالة شفوية مؤداها: «جزاك الله خيرا صرحت بما لا نستطيع التصريح به».

كان أستاذ الأجيال ولا يزال وفقه الله يحمل عبئا ثقيلا في جمع شمل المسلمين بالهند. وكانت له صلات بجهات تخندق فيها العقيدة الحنبلية التيمية الوهابية شديدة المراس. لم تمنعه صلاته تلك أن يكتب ببيانه العذب وعلومه الواسعة دفاعا متنوع المظاهر عما سماه القرآن تزكية، وسماه الاصطلاح التاريخي تصوفا، وسماه شيخ الإسلام ابن تيمية فقه سلوك تعقّبه بالنقد بعد اطلاع واسع على دخائل من تسموا صوفية. فيهم أمثال الجنيد والشيخ عبد القادر وأضرابهم من أئمة الدين، وفيهم أكلة الأفاعي والراقصون والزنادقة والمجانين والسكارى الشطاحون. كل أولئك اجتهد شيخ الإسلام ليميز من بينهم الصالح من الطالح. الصالح والطالح في نظره.

كتب الشيخ أبو الحسن الندوي في «رجال الفكر والدعوة» و«ربانية لا رهبانية». ولكن العقلانية التيمية الصائلة في الميدان المدججة بالمال وسيل المطبوعات الفاخرة والجامعات تفرخ الدكاترة المجندين المتكلمين حراس العقيدة تترصد البدعة

والضلالة والكفر والجهل وفساد العقيدة وراء كل ما ينطق بالتصوف. التصوف جملة واحدة ضلال قبل أي كلام.

وتحسَّرْ أنت وحدك يا من يحمل هم الأمة على ما تسرب إلى جوهر الدين من خلال التصوف الفلسفي الشاطح، وعلى ما تعانيه الدعوة من خواء روحي. هذه النفوس الصاحية إلى الإسلام، وهذا الشباب المتطلع إلى صلاح كيف نهدي إليه والمعمعة حامية بشرى التزكي وترياق الشفاء تحت شعار مقبول مثل «التربية الروحية» دون أن نذكر الكلمة/الحرب ودون أن نصارح هذه الأجيال الصادقة بأمانة وصدق أن التصوف عمل، وأن العلم بما هو التصوف فرض على كل ناصح لنفسه لا يقعقع له بالشنان زجرا له عما تصفه العقلانية المقتضبة بالبدعة والضلالة والكفر والزندقة كلمةً واحدة.

وليس من شأننا، ولا مما يشغلنا، ولا مما ينبغي أن يشغلنا الدفاع عن خطإ من أخطأ، وتثبيت أقدام من زل، وتذكير الناسي بما نسي.

يا من رخص عليه دينه فأوْرَى زند الحرب على المسلمين وشنها شعواء على المؤمنين! ويحك! أرثي والله لزهدك في الاطلاع على دينك! شعارك «الكتاب والسنة» وهو شعار المؤمنين. لكنك تفهم وحدَك متلفعا في مذهبيتك الكتاب والسنة. وغيرك ضال ومضل. ما أنصفت نفسك إذ استخففت بأجيال العلماء من الأمة الذين دانوا الله قبلك وحققوا ودققوا ونصحوا. ولا أنصفت غيرك إذ اختصرت المسألة في تقابل ضدي بين تصوف كفر وعقيدة سليمة. العقيدة السليمة أنت، وغيرك جهمي معطل فاسق بدعي كافر. ويحك!

هل من سبيل يا أهل السماحة إلى الحديث في هذا الموضوع دون نفثات حسرة وغضب؟

أكثرت في هذا الكتاب من اقتطاف نصوص من أطايب الكلام لأمثال الشيخ عبد القادر والشيخ الرفاعي وشيخ الإسلام ابن القيم، خرقا للمنهجية الأكاديمية التي تأبى أن تسرد النصوص الطويلة. «لست من قيس ولا قيس مِنِي!». فلذلك أهدي القارئ من عيون البلاغة وأزاهر البيان.

قال المعترض: هذا عبد القادر وأحمد الرفاعي صوفيان مشهوران. فما بال ابن القيم وهو العالم السلفي المجيد؟

قلت: من قرأ تذييل ابن رجب على طبقات الحنابلة اطلع على ما عند سادة المذهب وأئمته رضي الله عنهم من تقوى وربانية وخشية لله تعالى. لا يحبون كلمة «تصوف» لكن سلوك أكابرهم يذكر بسلوك الصالحين في القرون الفاضلة.

ومن قرأ كتب ابن القيم مثل «مدارج السالكين» و«دار الهجرتين» وما فيها من الرقائق وبدائع الوعظ والتذكير والهمسات والزفرات المكتومة ربما أدرك أن في الأمر شيئا مميِّزاً بين العقلانية الصارمة للشيخ ابن تيمية والتلميذ ابن القيم.

وإن في الأمر لأشياء أعرضها في هذا الكتاب حين كتب شيخ الإسلام من سجنه الذي مات فيه رحمه الله ورفع درجته يعيِّر أصحابه بأنه ينقصهم الوجد، ويبشرهم بأن الله تعالى فتح له ما لم يكن بالحسبان.

سبحان الله! عُمْرٌ كامل في مزاولة العقل والنقل ومحاربة الوجد والواجدين، ثم انقلاب آخر رمق!

حارب قبل شيخ الإسلام الصوفية الإمام ابن الجوزي رحمه الله. ووصفهم في «تلبيس إبليس» –وصف ما شاهد وما سمع– بأنهم من «جملة الزهاد وقد ذكرنا تلبيس إبليس على الزهاد إلا أن الصوفية انفردوا عن الزهاد بصفات وأحوال وتوسموا بسمات فاحتجنا إلى إفرادهم بالذكر، والتصوف طريق كان ابتداؤها

الزهد الكلي ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من الزهد. ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب فلا بد من كشف تلبيس إبليس عليهم في طريقة القوم».[1] ثم نجد ابن الجوزي في كتابه «صيد الخاطر» يقول: «مجرد العلم بالحلال والحرام ليس له كبير عمل في رقة القلب. وإنما ترق القلوب بذكر رقائق الأحاديث وأخبار السلف الصالحين وأذواق أهل التصوف».

ونجد الحافظ ابن الجوزي ينصح ابنه قائلا: «وعليك بكتاب «منهاج المريدين»، فإنه يعلمك السلوك، فاجعله جليسك ومعلمك، وتَلَمَّحْ كتاب «صيد الخاطر»، فإنك تقع بواقعات تصلح أمر دينك ودنياك».[2]

حنابلة أئمة يرجعون. هذا عير إخوانه في آخر حياته بأنه ينقصهم الوجد بعد أن حارب الوَجد وأهل الوجد عمرا حافلا. والآخر كشف عن تلبيسات إبليس لدى المتزهدة الذين يكثرون من الأكل والرقص والغناء، ثم ينصح أعز الناس عليه وأقربهم إليه، وينصح الأمة بالبحث عما يرقق القلوب ويوقظ القلوب لتذوق حلاوة الإيمان.

ولئن تركها ابن الجوزي رحمه الله إشارة إلى «أذواق أهل التصوف»، وتركها بعده شيخ الإسلام رحمه الله توجيها إلى طلب الوجد، فإننا بعون الله نُطَوِّف في رياض المربين المتزكين الذائقين الواجدين المحبين الوالهين في جلال الله وجماله، عسى يشيم صادق صابر معنا وصادقة صابرة من عبير النفح الروحي وعطر التزكية الإحسانية.

1 تلبيس إبليس ص 145.
2 لفتة الكبد في نصيحة الولد ص 66.

واذهب أنت يا من تمر على فتاوي ابن تيمية مر الكرام لا تقف عند فصوص الكلام ومفاصل العبرة، تكفر المسلمين وترفع لواء حمله قبلك فطاحلة ثم تخلوا عنه.

أكتب يا أهل السماح هذه المقدمة ليلة السابع والعشرين من رجب سنة 1414 تيمنا بالذكرى المباركة للإسراء والمعراج. على سيدنا وحبيبنا محمد رسول الله أزكى الصلاة وأطيب السلام. اللهم اهد قلوبنا لما فيه خيرنا وخير المسلمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سلا، ليلة الإثنين 27 رجب 1414.

الفصل الأول
الرجال

- ❑ معاني الإحسان
- ❑ ألا وإن في الجسد مضغة
- ❑ علم التصوف فقه واجتهاد
- ❑ علوم القوم ومكانتها من بين العلوم
- ❑ المحدثون والصوفية
- ❑ الفقهاء تلامذة الصوفية
- ❑ بين التشدد والاعتدال
- ❑ مراجعة وتوبة

معاني الإحسان

لفظ «الإحسان» يدل على معاني ثلاثة ورد بها القرآن ووردت بها السنة:

-1 الإحسان بأن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

-2 الإحسان إلى الناس، كالوالدين والأقربين واليتامى والمساكين والمسلمين وسائر الخلق أجمعين.

-3 إحسان العمل وإتقانه وإصلاحه، سواء العمل العبادي أو العادي أو المعاملاتي.

مجموع هذه الدلالات يعطينا مواصفات المؤمن الصالح في نفسه وخلقه وتعامله مع المجتمع، يعطينا الوصف المرغوب لعلاقات العبد بربه وبالناس وبالأشياء. علاقته بربه تكون إحسانية إن حافظ على ذكره لايفتر عن مراقبته وخشيته ورجائه ودعائه ومناجاته. بهذا الإحسان في عبادة ربه يطيب قلبه وتجمل أخلاقه وتصلح نواياه وأفعاله فيكون للخلق رحمة يعم نفعه العالم الأقرب فالأقرب. ونفعه للمجتمع وللناس كافة لا يتوقف على حسن النية وجمال القصد والإسراع إلى الفعل فقط، بل يتوقف أيضا، وبالمكانة المؤكدة، على خبرته ومهارته وقدرته على إتقان ما هو موكول إليه من أعمال.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البيهقي رحمه الله عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه». ومن حديث مسلم قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله كتب الإحسان

على كل شيء». في هذين الحديثين نجد المعنى الثالث للإحسان عائدا إلى المعنى الأول، حصول الأول متوقف إلى حد على حصول الثالث. ويعم حب الله تعالى المحسنين، أكملهم نصيبا من حبه تعالى من عبده ذاكرا نافعا للعباد متقنا مجيدا، يعطيه إتقانه الوسائل الضرورية لإرضاء الحاجات الدنيوية لنفسه وعائلته وأمته، وتؤهله خدمته وإنجازاته الدنيوية للتقرب من الله رب العباد من خلال هذه الإنجازات نفسها.

وردت عبارة ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أو ﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ في سورة البقرة، وفي سورة آل عمران مرتين، وفي المائدة مرتين. وفي القرآن آيات عديدة تعد أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن الله لا يضيع أجر المحسنين، وأن البشرى للمحسنين. حض على الإحسان متكرر، فما هي حقيقة الإحسان تفصيلا؟

بعد أن وضعنا على رأس هذه الفقرة المعاني الثلاثة مرتبة، نستمع إلى بيان ترجمان القرآن رسول رب العالمين لنضع الإحسان في مكانته من الإسلام والإيمان. فإن الإحسان ما هو معنى عائم هكذا، عام الدلالة بعموم المدلول اللغوي، بل الإحسان رتبة في الدين ودرجة في التقوى، لها الأهمية القصوى. الإحسان غاية الغايات ومحط نظر ذوي الهمم العالية من الرجال. لأهمية الإحسان هذه البالغة شاء الله جل شأنه أن يرتب للصحابة رضي الله عنهم ولنا من بعدهم حادثة تلفت النظر وتعلق بالخيال، وتخاطب العقل والوجدان، لكيلا يفهم المسلمون دينهم فهما مسطحا. هذه الحادثة هي نزول جبريل عليه السلام لاستجواب الرسول الكريم وهو بين أصحابه في مجلس تعليمه. رأوا الملك المقرب جميعا وشهدوا الحوار. هذه لوحة خالدة للتعليم الرباني يرويها الشيخان وأبوداود والنسائي عن أبي هريرة وأبي ذر رضي الله عنهما بصيغة مقتضبة نمسك منها

عبارة أن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». في هذه الرواية يقول الحبيب آخر الحديث: «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم».

نأخذ الرواية الأتم، ننقلها بتمامها لأهميتها البالغة، أخرجها مسلم وأبوداود والنسائي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لايرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد. حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد! أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتومن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة. قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان. قال: ثم انطلق. فلبثت مليا (أي قليلا) ثم قال لي: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

نعم يا حبيب الله أنت المعلم نعم المعلم جزاك الله عن هذه الأمة ما هو أهله. لكن رحمته سبحانه بنا، وحرصه على أن نتعلم ديننا كاملا وافيا، لما يعلم من قصور فهمنا وغلبة النسيان علينا واختلاط معالم الأمور في ذاكرتنا، بعثت معلما مساعدا سماويا هو رفيقك ومحاذيك في إسرائك ومعراجك. عليك صلاة الله وسلامه وعلى الملك الكريم.

الإحسان أن نعبد الله كأننا نراه. درجة ثالثة بعد الإسلام والإيمان، فوقهما، بناء عليهما لاتحليقا، لاإيمان بلا إسلام، ولا إحسان بلا إيمان.

الله سبحانه أحسن صبغة وأحسن قيلا. وهو أحسن الخالقين. ومن إحسانه يفيض الخير على من أقرض الله قرضا حسنا، وعلى من أبلى بلاء حسنا. منه إلينا الرزق الحسن والمتاع الحسن في الدنيا والحسنى وزيادة في الآخرة إن نحن أحسنا في هذه الدنيا حسنة، وهاجرنا فيه سبحانه ليبوئنا في الدنيا حسنة. يزيدنا حسنا إن اقترفنا حسنة ويعطينا إن أحسنا الدعاء في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة.

له الأسماء الحسنى سبحانه. دعانا رسوله المصطفى بالموعظة الحسنة، فإن نحن استجبنا لربنا وصدقنا بالحسنى أعطانا الحسنى في هذه الدار، وجعلنا من المبعدين عن النار مع الذين سبقت لهم منه الحسنى.

أمرنا أن نتبع أحسن ما أنزل إلينا من ربنا، وهو كتابه العظيم وسنة رسوله الكريم، وفي كتابه وسنة رسوله الإحسان إلى الوالدين، والدفع بالتي هي أحسن رفقا بالخلق وملاطفة، وأن نقول للناس حسنا، وأن نجازي بالإحسان إحسانا.

خلقنا سبحانه في أحسن تقويم، ثم ردنا أسفل سافلين في دار الامتحان ليبلونا أينا أحسن عملا، فمن آمنوا وعملوا صالحا كان لهم أجر غير ممنون، وكلما كان إيمانهم أكمل وعملهم أحسن كانوا أقرب إلى نيل كمالهم الأخروي حيث يحشرون إلى دار النعيم في أحسن تقويم. خرجوا من الامتحان صالحين. هنالك في مقعد الصدق يقال لهم ما قيل للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين: ﴿ **سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾[1]. ﴿**سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾[2]. ﴿ **لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ**﴾.[3] هنالك يستبشرون

1 الصافات، 109-110
2 الصافات، 130-131
3 الزمر، 34